التدخل العسكري الفرنسي في منطقة آيت سخمان بين استراتيجية الاحتلال وردود فعل الزعامات الدرقاوية المحلية (1922- 1932).

أ.د. قاسم الحادك*

مقدمة: بمجيء الاستعمار الفرنسي، وقفت جل الزعامات القبلية والصوفية الدرقاوية في منطقة آيت سخمان في وجه الغزو العسكري الفرنسي، وانبرت للدعوة إلى الجهاد واستنهاض القبائل وتحسيسها بمخاطر المخططات الاستعمارية وحثها على تنظيم المقاومة، فمثلت بذلك تيار المقاومة والجهاد أحسن تمثيل، في وقت كان فيه الموقف العام لجل الطرق والزوايا يتسم بالسلبية والركون إلى مسالمة السلطات الاستعمارية ومهادنتها، ومن ثم قدم الدرقاويون في هذا الظرف الدقيق والحرج من تاريخ المغرب زعامات صوفية وقبلية كان لها شأن كبير في تنظيم المقاومة والجهاد.

فما هي أبرز الخطط والتكتيكات التي تبنتها القيادة العسكرية الفرنسية في غزوها لمجال آيت سخمان؟ وما هي الأدوار التي قامت بها الزعامات الدرقاوية بهدف تأطير قبائل المنطقة ودعوتها إلى التكتل والتنسيق لمواجهة الخطر الأجنبي المشترك؟ وكيف استطاعت الاحتفاظ بمستوى من التعبئة وبحد أدنى من الوحدة بينها بهدف إطالة أمد المواجهة ضد قوات الاحتلال رغم العراقيل الكبيرة التي كانت تحد من نشاطهم وتحركاتهم؟

I- مجال اتحادية آيت سخمان: خصوصياته ومكانته في الاستراتيجية العسكرية الفرنسية: أجمعت مختلف الكتابات التي أرخت للعمليات العسكرية الفرنسية بالأطلس المتوسط[1] على أهمية هذه المنطقة في الاستراتيجية الفرنسية بالمغرب، لما لها من خصوصيات طبيعية وبشرية واستراتيجية تميزها عن غيرها من مناطق المغرب، فالأطلس المتوسط يشكل الممر الذي لا بد للقوات الفرنسية من احتلاله إن هي أرادت الربط بين شمال المغرب وجنوبه وشرقه وغربه، ومراقبة الطريق الهام الممتد من فاس إلى مراكش من جهة، وربط المغرب بالجزائر من جهة أخرى[2]، وقد ذهب القادة العسكريون الفرنسيون إلى حد الربط بين استقرار الامبراطورية الاستعمارية في إفريقيا الشمالية والاستحواذ على الأطلس المتوسط وإخضاع قبائله[3].

*أستاذ في تاريخ المغرب المعاصر وباحث في تاريخ المقاومة المغربية وجيش التحرير- كلية الآداب والعلوم الإنسانية- المغرب.

من هنا إذن تأتي الأهمية الجغرافية لمجال آيت سخمان على طول واد العبيد باعتبارها حلقة وصل بين شرق الأطلس وغربه، ومنطقة ضرورية للإخضاع النهائي لمجموع واد العبيد.

وقد كانت المؤسسة العسكرية الفرنسية تدرك جيدا صعوبة إخضاع هذه الأوساط القبلية من خلال عمليات واسعة النطاق، لذا تبنت خطة تعتمد التطويق والاختراق التدريجي للمجال الترابي لاتحادية آيت سخمان، وترتكز على فرض حصار خانق على هذه الاتحادية من جميع الجهات، والسيطرة على أهم مراكزها الدينية والاقتصادية الاستراتيجية ومنع قبائلها من ارتياد الأسواق والمناطق السهلية، وعزلها في المرتفعات عن طريق إنشاء سلسلة من المراكز العسكرية، وبالتالي إجبارها على الخضوع والاستسلام عوض الموت من شدة الجوع والبرد[4].

وهكذا مر الغزو العسكري الفرنسي لقبائل آيت سخمان والأوساط القبلية المتحالفة معها بثلاث مراحل أساسية تراوحت بين التطويق والحصار من جهة والغزو والاختراق من جهة أخرى، غير أن ما ميز التدخل الفرنسي في بلاد آيت سخمان هو طول فترة الحصار الناتجة بالأساس عن المقاومة الشديدة التي أبدتها هذه الجماعات المقاومة بتأطير من الزعامات الدينية الدرقاوية ورفضها لكل محاولات الخضوع.

اعتبر القائد الأعلى لجيش الاحتلال الجنرال ليوطي سنة 1920م مرحلة جديدة في تاريخ غزو منطقة واد العبيد، فقد شكل نجاح النشاط السياسي والعسكري الفرنسي في احتواء كتلة المقاومة الزيانية[5] وإخضاع قبائلها عاملا حاسما في الانتقال إلى محاولة اختراق المراكز الدينية والاقتصادية الدرقاوية مثل القصيبة وتنتغالين والقباب...، حيث كانت تتحصن قبائل آيت سخمان والجماعات المقاومة المتحالفة معها والهاربة من الغزو العسكري بتأطير من الزعامات الدرقاوية، وفرض حصار خانق عليها بتطويقها بسلسلة من المراكز العسكرية[6]، وجعلها تعاني خلال موسم الأمطار والثلوج بحرمانها من كل مورد أو إمكانيات العيش بهدف الضغط عليها لإرغامها على الخضوع الاضطراري عند حلول فصل الشتاء[7].

كما هدفت سياسة الحصار أيضا إلى تفكيك جبهة المقاومة ووضع حد للهجمات الخاطفة والمتكررة التي كانت تقوم بها الجماعات المقاومة لآيت سخمان بإشراف من الزعامات القبلية والصوفية الدرقاوية[8].

و لم تخرج عمليات قوات الاحتلال في هذه المنطقة عن التصور العام الذي ميز الاستراتيجية العسكرية الفرنسية والمبنية على النهج الدفاعي وتفادي الاصطدام المباشر مع الجماعات القبلية

المقاومة. وبموجب هذه الاستراتيجية الدفاعية أصبح قادة جيش الاحتلال يعولون كثيرا على النشاط السياسي لمصالح الشؤون الأهلية، وعلى عامل الوقت للتعجيل بإخضاع القبائل المقاومة المتحصنة بالمرتفعات، خصوصا وأنهم كانوا يظنون أنه بإمكانهم النفاذ إلى داخل هذه الأوساط القبلية واختراق جبهة مقاومتها بدعوى **"وجود زعامات عاجزة عن تنظيم المقاومة عسكريا وغير قادرة على الحفاظ على صمود الجبهة الداخلية بعد رحيل الزعماء الكبار"**[9].

وقد جاء هذا التوجه التكتيكي الجديد الذي تبنته القيادة العسكرية الفرنسية[10] ـــ والذي أصبحت تتحفظ بموجبه كثيرا في شأن القيام بعمليات واسعة النطاق، وتقرر اللجوء إلى عمليات متدرجة تعتمد التسلسل البطيء بالموازاة مع العمل السياسي الهادف إلى تفكيك كتلة المقاومة عبر بث النزاعات والخصومات بين مكوناتها ـــ كنتيجة منطقية للصدمة التي خلفتها المواجهات الأولى لجيش الاحتلال مع الأوساط القبلية للأطلس المتوسط والخسائر البشرية الكبيرة التي تكبدتها خلال هذه المواجهات.

وبغية التقليل من الخسائر في صفوف قواتها النظامية، اعتمدت القيادة العسكرية الفرنسية في عملياتها في المنطقة بشكل كبير على مقاتلي العشائر والقبائل الخاضعة[11]؛ حيث أصبحت فرق الكوم والبرطيزة والمخازنية تتقدم الطوابير والقوافل الفرنسية وتحيط بالمراكز والمعسكرات والوحدات المتنقلة[12]، خصوصا بعد خضوع القبائل الزيانية سنة 1920م الذي شكل نقطة تحول حاسمة، فانطلاقا من هذا التاريخ شكل مقاتلو هذه القبيلة ركيزة أساسية اعتمد عليها جيش الاحتلال في المنطقة بصفة خاصة وفي مجموع الجبهات المغربية النشيطة بصفة عامة لدعم ومساندة القوات النظامية[13]، حيث استطاع حوالي 2000 من الخيالة الزيانيين يتمتعون بحركية كبيرة بقيادة ثلاثة من أبناء موحا أوحمو[14] تقديم إضافة نوعية جعلت العسكريين الفرنسيين يعترفون بأن **"كل النجاحات التي تحققت في هذه الفترة يعود الفضل فيها لهؤلاء الفرسان الزيانيين"**[15].

إن اعتماد قادة جيش الاحتلال على العنصر الأهلي المختار والمنتقى بطريقة جيدة كدعامة أساسية لكل لعملياتهم في المنطقة، يرجع بالدرجة الأولى إلى اقتناعهم بالخصال الحربية التي يتمتع بها هؤلاء المحاربون المغاربة ومعرفتهم الدقيقة بالميدان الذي تجري فيه المعارك والمواجهات العسكرية[16]، بالإضافة إلى رغبتهم في إخضاع هذه القبائل بقوات محدودة وبخسائر قليلة في صفوف القوات النظامية[17].

وهكذا شكلت مرتفعات الأطلس المتوسط بقسميه الشمالي الشرقي والجنوبي الغربي مع بداية سنة 1920م جبهة نشيطة أو"منطقة الثورة الكبرى" كما أسماها العسكريون الفرنسيون[18]، لكن وبسبب محدودية القوات لم يستطع القائد الأعلى لقوات الغزو الجنرال ليوطي المخاطرة بهجوم متزامن على كل الجبهة الواسعة خصوصا وأنها تضم جماعات مقاومة جيدة التسليح متحصنة بالمرتفعات الجبلية الوعرة[19]، واكتفى ببرنامج للعمليات يهدف إلى إحكام السيطرة على المجال الممتد بين واد العبيد وأم الربيع، واتخاذه نقطة انطلاق لغزو أعالي واد العبيد ومراقبة تحركات قبائل الأطلس الكبير، وقد ارتكز هذا المخطط على شن هجمات متتابعة ومحدودة في الزمان والمكان مع ضمان التفوق العددي والنوعي بمشاركة فعالة لمقاتلي القبائل الخاضعة خاصة الزيانيين[20].

II – الاحتلال الفرنسي لأهم المراكز الدينية والاقتصادية الدرقاوية سنة 1922 وتحركات جماعات المقاومة الدرقاوية: انطلقت هذه الحملة العسكرية سنة 1920م بالتهدئة النهائية لبلاد زيان واحتلال مجرى أم الربيع من خلال قيام الوحدتين المتنقلتين لمكناس وتادلة باحتلال زاوية آيت إسحاق ودشر الواد وزاوية الشيخ[21] ،بعد نشاط سياسي مكثف دام سنتين. وقد زاوجت القوات الفرنسية خلال هذه العمليات بين عمليات قامت بها القوات النظامية التابعة للوحدات المتنقلة، وأخرى اعتمدت خلالها على "**الخدمات التي قدمها الزعماء الزيانيون الخاضعون منذ أقل من سنتين خاصة بوعزة وحسن...**"[22].

ورغم نجاح القوات الفرنسية في احتلال كل مجرى أم الربيع[23] وتمكنها من إخضاع حوالي 2500 خيمة[24]، فإن أغلب الجماعات المقاومة رفضت إعلان خضوعها[25] ولجأت إلى المرتفعات الجبلية المجاورة جنوبا "**مترددة بين الخضوع والاستمرار في المقاومة خاصة بعد خضوع العديد من الأعيان، ورغم تعهدها بعدم القيام بأي عمل عسكري فإنها لا تزال تخضع للدعاية المكثفة للزعيم الدرقاوي سيدي محمد بن الطيبي**"[26].

وانطلاقا من سنة 1922م سعت القوات الفرنسية إلى ترسيخ تواجدها في الأطلس المتوسط الأوسط، وتأمين المكتسبات السياسية والعسكرية التي حققتها في المجال الزياني[27]، عبر إخضاع المنطقة الواقعة بين أعالي أم الربيع وأعالي ملوية ومنابع وادي العبيد[28]، وقد جاء توغل القوات الفرنسية في هذه المرتفعات الجبلية في إطار مخططها الرامي إلى محاصرة جماعات المقاومة الدرقاوية لآيت سخمان عبر احتلالها كل من القصيبة وتينتغالين والقباب وواويزغت[29]، وبالتالي شل كل تحركات الزعماء الدرقاويين والحيلولة دون تحالفهم مع باقي القوى القبلية التي لا زالت تتبنى نهج

المقاومة، وتفادي قيامهم "بأنشطة معادية" مشتركة[30]. وأسندت قيادة هذه الحملة العسكرية إلى الجنرال بويميرو Poeymirau الذي حشد حوالي 15 كتيبة مدعمة بسبع فرق من الكوم و3000 من البرطيزة[31].

وبما أن الفرنسيين كانوا يدركون صعوبة هذه المنطقة الجبلية والغابوية من الناحية التضاريسية[32] والظروف المناخية القاسية التي تجعل أي عمل عسكري قبل شهر ماي يكتسي صعوبة كبيرة، فقد ارتأوا أن تقوم فرقة المناورة لتادلة وحدها بالتوغل في المنحدر الشمالي للأطلس المتوسط ابتداء من شهر أبريل بهدف توسيع ودعم تغطية الضفة اليسرى لأم الربيع وتوفير الحماية الضرورية للعمليات العسكرية المتنقلة.

وقد اعتمد البرنامج العام لهذه العمليات العسكرية ثلاث مراحل أساسية:

- عمليات في بلاد آيت ويرا خلال شهر أبريل 1922 تنتهي باحتلال القصيبة.

- عمليات ضد إيشقرن وفي أعالي ملوية بين شهري ماي ويوليوز 1922 بهدف احتلال تينتغالين والقباب.

- عمليات في بلاد آيت عطا وآيت سخمان خلال شهري شتنبر وأكتوبر 1922 بهدف احتلال واويزغت[33].

ويوم 9 أبريل تمكنت الوحدة المتنقلة لتادلة بقيادة الكولونيل فريدنبرك Freydenberg .بمساندة ثلاث فرق من الكوم والخيالة الزيانيين من الاستيلاء على القصيبة بعد أن خاضت سلسلة من المعارك العنيفة ضد جماعات المقاومة، ثم غادرت المنطقة يوم 11 ماي وشنت هجوما على قبائل إيشقرن، وتمكنت من السيطرة على تنتغالين يوم 16 ماي بعد أن فقدت حوالي ضابطين و13 من القوات غير النظامية وجرح أكثر من 22 من الأهالي[34]، وبذلك تكون هذه الوحدة المتنقلة قد دعمت السيطرة الفرنسية على كل سهل تادلة شمالا وجنوبا[35].

وفي الوقت نفسه احتشدت فرقتا المناورة لأعالي ملوية بقيادة الجنرال تيفني Theveny والكولونيل دوشمبران De Chambrun شمال بودرعة وآيت مولي[36]، وتمكنتا من احتلال أغبالو نسردون وأزرزو وصولا إلى بوخديدج يوم 23 ماي، حيث قامتا بالسيطرة على المرتفعات المجاورة[37].

أما فرقة فريدنبركفريدنبرك فقد تمركزت في زاوية الشيخ على مجرى أم الربيع، وواجهت منذ انطلاق عملياتها بموازاة واد سرو معارك عنيفة ضد جماعات المقاومة غير بعيد عن القباب وقرب تينتغالين يوم 16 ماي اضطرت خلالها هذه الأخيرة إلى الانسحاب واللجوء إلى المرتفعات[38].

بعد نجاح العمليات الفرنسية في السيطرة على هذه المرتفعات، وتمكنها بالتالي من من فتح طريق عبر الأطلس المتوسط بين خنيفرة في أم الربيع وأزرزو في ملوية، وتصديها للهجمات العنيفة لرجال المقاومة المتحصنين في المرتفعات الجنوبية لملوية، قرر الجنرال بويميرو بويميروالتوجه نحو أغبالة والسيطرة على هذا المركز الديني الدرقاوي المهم[39].

وابتداء من منتصف شهر يونيو، استأنفت الوحدات المتنقلة زحفها العسكري عبر الوادي والجبل بالتوازي، حيث انطلق الكولونيل فريدنبرك فريدنبركفي عملياته العسكرية من تنتغالين، وتمكن من الاستيلاء على مرتفعات تاسفيلالت التي كانت تتحصن فيها قبائل إيشقرن التي انسحبت بعد أن تكبدت خسائر كبيرة[40]. أما قوات مكناس فتمكنت من الاستيلاء على تاكتزة لتجتمع كل الطوابير العسكرية يوم 19 يونيو بألمسيد، حيث قام الجنرال بويميرو بويميروبتشييد مركز يضمن الاحتلال النهائي لملوية العليا. وقد حاولت جماعات المقاومة الدرقاوية المنتمية إلى آيت سخمان وآيت يحيى وبني مكيلد وإيشقرن التصدي لهذا الغزو العسكري يوم 20 يونيو في معركة تافساست التي استمرت لأكثر من خمس ساعات، نجح خلالها حوالي 3000 من رجال المقاومة في الالتحام بالقوات الفرنسية بقيادة مارتي Marty[41]، وشن هجوم على جناح حراستها الخلفي في مكان يطلق عليه "الكركور"، ورغم المقاومة الشديدة التي أبانوا عنها، فإن نيران سلاح المدفعية التابع للقوات الفرنسية استطاعت ردهم على أعقابهم، بعد أن كبدتهم خسائر كبيرة فاقت المائة قتيل من بينهم إثنان من أبناء سيدي علي أمهاوش، في حين بلغت خسائر القوات الفرنسية حوالي 17 قتيل و27 جريح[42].

شكلت هزيمة المقاومين في معركة تافساست ضربة موجعة للدعاية الدينية والسياسية التي كانت تقوم بها الزعامات الدرقاوية والمرتكزة أساسا على التنبؤات التي كانت تعتبر موقع معركة تافساست مجالا مقدسا لا يمكن لقوات الاحتلال اختراقه[43]، الأمر الذي أدى إلى تراجع المكانة الروحية لهؤلاء الزعماء وسط جماعات المقاومين الذين أصيبوا بخيبة الأمل وهم يرون القوات الفرنسية تنتهك مجالهم الترابي أمام أعين زعمائهم الدينيين.

وقد تمكنت القوات الفرنسية خلال هذه العمليات من الاستيلاء على كل مجرى ملوية ومنحدري الأطلس المتوسط وصولا إلى السفح الذي يفصل منابع ملوية عن منابع واد العبيد، ونجحت بذلك في السيطرة النهائية على هذه المنطقة، وإحداث مراكز جديدة في تافساست وألمسيد وتاسفلالت. أي إن الوحدة المتنقلة لتادلة استطاعت احتلال معاقل قبائل آيت ويرا وإيشقرن التي انسحبت معظم فخذاتها واضطرت للجوء إلى المرتفعات المجاورة، واكتفت بتبني مواقف دفاعية "مما سيضطرها إلى الخضوع الحتمي—حسب التقارير العسكرية الفرنسية— بسبب محدودية ظروف العيش في الجبال"[44].

وحسب العسكرين الفرنسيين فإن الفضل في هذه الإنجازات المهمة يعود بالدرجة الأولى إلى الدور الكبير الذي قام به رجال القبائل الخاضعة، سواء بزعامة أبناء موحا أوحمو الزياني أو أحد أبناء موحا أوسعيد الذين حاربوا إلى جانب القوات العسكرية الفرنسة طيلة سنتين وعملوا جاهدين لتفكيك كتلة هذه المقاومة[45].

غير أن قوات الغزو ورغم نجاحها في التصدي للهجمات المتكررة التي قامت بها جماعات المقاومين وتكبيدهم خسائر مهمة، وإرغامهم على الانسحاب واللجوء إلى منحدرات الأطلس الكبير، فإن العسكريين الفرنسيين أشاروا مرارا إلى استمرار وجود "تكتل معاد مهم وجدي يشمل الجماعات والفخدات التي لجأت إلى هذه المنطقة فرارا من الزحف العسكري الفرنسي، والتي لم تبد أي مؤشر على الخضوع، إنهم كثر ومسلحين جيدا، متجمعين حول مراكز للدعاية الدينية خاصة في تونفيت وسيدي يحيى أويوسف"[46]، لكنهم —أي قادة جيش الاحتلال— كانوا متيقنين من حتمية خضوع رجال المقاومة، لأنهم كانوا يعتقدون أنهم "لن يتمكنوا من العيش لمدة طويلة في هذه الكهوف العميقة والضيقة مع أسرهم وقطعانهم... لاسيما بعد تأكدهم من الاستقرار النهائي للقوات الفرنسية، ومعاينتهم لعمليات بناء وتشييد المراكز العسكرية وشق الطرق ونصب خطوط التلغراف"[47]، فراهنوا على عامل الوقت لجعل هذه الجماعات المقاومة تغير من موقفها.

وفي شتنبر 1922 قررت القيادة العسكرية احتلال واويزغت، وقد اكتست هذه العمليات صعوبة كبيرة بسبب "وعورة المنطقة واستماتة مقاوميها وحماستهم العالية الناتجة عن التحريض المستمر لشيوخ زاوية أحنصالة"[48]. وقد أسندت قيادتها إلى الجنرال دوكان Daugan قائد جهة مراكش، الذي قرر شن هجوم متزامن عبر واجهتين بتنسيق بين الوحدتين المتنقلتين لتادلة ومراكش، وذلك بهدف عزل الجماعات المقاومة وتطويقها من جهات متعددة وتشتيت جهودها

عبر دفعها إلى التحرك عبر عدة جبهات، وبالتالي الحيلولة دون قيامها بعمل عسكري مشترك. الشيء الذي يعكس عنف المقاومة التي ووجهت بها القوات الفرنسية من قبل الأوساط القبلية السخمانية والجماعات القبلية المتحالفة معها والمؤطرة من طرف الزعامات الدينية الدرقاوية.

وابتداء من شتنبر 1922م، انطلقت الوحدة المتنقلة لتادلة بقيادة الكولونيل فريدنبرك فريدنبركمن مركز سيدي يحيى، الذي اعتبر نقطة انطلاق العمليات[49] بالتنسيق مع قوات الوحدة المتنقلة لمراكش بقيادة الجنرال دوكان دوكان[50] المكونة من التشكيلات العسكرية التالية:

-11 كتيبة، 5 فيالق، 8 بطاريات، 3 فرق الكوم و3000 من رجال الباشا الحاج التهامي الكلاوي[51].

ونظر لخطورة طريق المخزن التي كان رجال المقاومة متحصنين بالمرتفعات المطلة عليها، فقد ارتأت الوحدة المتنقلة لتادلة سلوك طريق أخرى تمر عبر سلسلة مرتفعات تيموليلت التي تمكنت من احتلالها دون مقاومة تذكر[52]، بعد أن نجحت مصالح الاستعلامات في إقناع هذه القبائل بالخضوع. وبعد ذلك قررت التوجه نحو كتلة تاكترة التي تعد محطة ضرورية للوصول إلى واويزغت[53].

وقد كانت القوات الفرنسية تدرك صعوبة المهمة التي تنتظرها، خصوصا وأنها ستواجه أكثر من ألفي مقاتل من آيت إسحاق وآيت سخمان وآيت عطانومالو بقيادة الزعامات الدينية الدرقاوية التي لم تقف مكتوفة الأيدي أمام هذه التوغلات العسكرية لقوات الاحتلال، بل أعلنت حالة الاستنفار العامة، حيث عم المنطقة شعور بضرورة الاتحاد بين هذه الجماعات المقاومة التي قررت انتخاب زعيم حرب مشترك[54]، وحاولت تنظيم العديد من الحركات لكنها انكسرت أمام كثافة القصف المدفعي والجوي الذي أجبرها على الانسحاب بعد أن فقدت أكثر من مائتي قتيل وجريح[55]. أما الوحدة المتنقلة لمراكش والمتجهة نحو واويزغت فقد اصطدمت بمقاومة شرسة من قبل حركات المقاومة في المنطقة بزعامة سيدي حسين أوتمكا الذي شن هجمات متعددة على القوات الفرنسية، اضطرت معها هذه الأخيرة إلى خوض سلسلة من المعارك الشرسة تكبدت خلالها خسائر مهمة تمثلت في سقوط 96 قتيل و140 جريح في صفوف القوات النظامية و72 قتيل و175 جريح في صفوف رجال باشا مراكش[56]. ورغم هذا الصمود الكبير الذي أبدته حركات المقاومة، فإنها اضطرت إلى الانسحاب والتراجع أمام القصف الشديد لسلاحي المدفعية والطيران. الشيء الذي جعل العسكريين الفرنسيين يقررون المضي قدما في مخططهم الهادف إلى التوغل في

قلب هذه المرتفعات وعزل آيت سخمان وحصارهم، قبل أن يتمكنوا يوم 26 شتنبر من الاستيلاء على واويزغت وإخضاع حوالي 1950 خيمة[57]. وتتجلى أهمية هذا الإنجاز الذي حققته القوات الفرنسية في "كون إخضاع واويزغت مكنها من السيطرة على كل مجرى واد العبيد، وقادها أيضا نحو زاوية أحنصالة التي تعد بوابة للوصول إلى دادس عبر الطريق الذي تسلكه القوافل القادمة من وسط المغرب وغربه والمتوجهة نحو الصحراء متبعة مسار فاس وخنيفرة وتادلة وبني ملال وواويزغت وصولا إلى تودغة، وبالتالي نجاح قوات الاحتلال في الربط النهائي بين مراكش وبوذنيب"[58].

وحسب بيروني، فقد نجحت هذه العمليات التي دامت حوالي ثلاث سنوات في تشييد جميع المراكز العسكرية التي تم التخطيط لها سنة 1919، وهي القباب، تيمدغاس، القصيبة، واويزغت، أغبالة وأزرزو. وقد قام الفرنسيون ببناء شبكة من المسالك الطرقية مكنتهم من السيطرة على الحاجز الأوسط للسلسلة الجبلية بين أم الربيع وملوية وواد العبيد[59]. لكن ورغم نجاح قوات الاحتلال في عزل آيت سخمان عن باقي القوى القبلية المقاومة وخصوصا آيت عطا نومالو وحصارها من جهات متعددة، وبالتالي حرمان زعاماتها الدرقاوية من مجال خصب لترويج دعايتهم الدينية والسياسية والبحث عن حلفاء، فإن عملياتها قد فشلت في التأثير على هذه القبائل المقاومة التي رفضت الخضوع وبقيت متحصنة في مرتفعاتها الجبلية رفقة بعض الجماعات اللاجئة خصوصا بعض فخذات إيشقرن وآيت إسحاق[60].

ومنذ يونيو 1920م، وبعدما أصبحت القبائل التابعة له مهددة بشكل مباشر بالغزو، أرسل سيدي محا مبعوثا إلى قائد دائرة أزيلال يبلغه نواياه الحسنة، لكنه قام في الوقت نفسه بإرسال رجاله إلى تودغة للتصدي لقوات الكلاوي[61]، واتخذ عدة إجراءات لاعتراض تقدم القوات الفرنسية. وقد كان قادة جيش الاحتلال يتابعون عن كثب ازدواجية مواقف هذه الشخصية الدينية الأحنصالية التي كانت تتأرجح بين الرغبة في الدفاع عن استقلال القبيلة، وبين الوعود التي قدمها للسلطات الفرنسية بعدم مهاجمة قواتها[62]، لذلك نجدهم يتساءلون حول ما إذا كان سيدي محا ـــ الذي يدرك جيدا إصرار قوات الغزو على الإخضاع النهائي لآيت محمد وآيت اسحا ـــ سيعمد إلى إعلان الحرب ضد القوات الفرنسية لتأجيل هذا الخضوع، رغم "أنها مغامرة ستجعله يفقد كل شيء"[63]. لكن السلطات الفرنسية وبالنظر إلى الاتصالات التي باشرتها مصالحها الاستخباراتية مع هذا الزعيم الديني الحنصالي، كانت تبدو واثقة من اتخاذه للقرار المناسب[64].

وقد كانت الخطط الفرنسية لإخضاع قبيلة آيت امحمد مرهونة بالموقف الذي سيتبناه الزعيم سيدي محا، "فإذا أوفى بوعوده، فإن العمليات العسكرية ستكون شكلية وستتم في ظروف حسنة، أما إذا استسلم للتيار الرافض للخضوع، فإن الوحدة المتنقلة لمراكش ستكون مضطرة لخوض معارك شرسة ضد قبيلة آيت محمد التي أبانت طيلة سنة 1922 عن استماتة وصلابة كبيرتين"[65].

ومنذ نونبر 1922م استمر النشاط السياسي الذي دشنه قائد كتيبة شاردون Chardon مع سيدي محا بشكل حذر، واستهدف الضغط على هذا الأخير ودفعه إلى إقناع قبيلته بعدم جدوى مواجهة القوات الفرنسية، وبالتالي تفكيك هذا التكتل المعارض. وقد استندت خطة الكولونيل نوكيس Noguès قائد الوحدة المتنقلة لمراكش على هذا النشاط السياسي، وارتكزت على مبدأين أساسيين هما المفاجأة والسرعة، أي مباغتة جماعات المقاومين بكل قوات الوحدة المتنقلة وتهديدهم بالغزو والاجتياح إلى درجة تجعلهم ييأسون ويفككون حركاتهم[66].

وفي 1 ماي 1923 انطلقت الوحدة المتنقلة لمراكش وعسكرت في اليوم الموالي أمام تاغزيت[67]. وقد أعطى تمركزها قبالة زاوية أحنصالة نتائج إيجابية فورية ،إذ أبانت لقبيلة آيت محمد أن الوقت قد حان لاتخاذ القرار المناسب تفاديا لتعرضهم للقصف المدفعي[68]، فأبلغوا سيدي محا نواياهم الحسنة، وهكذا جرت يوم 16 يونيو في أزيلال محادثات بين الجنرال دوكان قائد جهة مراكش والزعيم الحنصالي أعلن خلالها هذا الأخير أنه "سيعلن خضوعه يوم وصول القوات الفرنسية إلى آيت محمد رفقة 1400 خيمة"[69].

كما حاولت القوات الفرنسية التوغل في اتجاه سكات قصد اجتياح آيت سعيد أوعلي انطلاقا من الجنوب، لكن محدودية النشاط السياسي لمصالح الاستعلامات وقيام القوات الفرنسية باستعدادات مكشوفة أمام جماعات المقاومين وبالتالي غياب عنصر المباغتة، جعلت هذا العمل العسكري يبوء بالفشل، حيث خسرت القوات الفرنسية حوالي 200 رجل مما اضطرها إلى تأجيل الوصول إلى سكات[70].

أما بالنسبة لقبيلة آيت اسحا فقد كانت بدورها منقسمة إلى فريقين: الأول يخضع لتأثير سيدي محا والثاني لسيدي الحسين أوتمكا[71]. لكنها استمرت مع ذلك في عدائها لقوات الاحتلال ورفضها لمحاولات سيدي محا للدخول في هدنة، حيث أرسلت حوالي 200 رجل للمشاركة في حركة لسيدي الحسين أوتمكا[72]، كما عبرت عن عدم رضاها على الإجراءات التي اتخذها سيدي محا

لعرقلة مرور رجال المقاومة عبر تراب القبيلة[73]، وهي إجراءات استغلها منافسه أوتمكا بذكاء لاتهامه بالتعاون مع الفرنسيين بهدف تقويض نفوذه والحد من نشاطه التخريبي.

وبغية تفكيك جبهة مقاومة آيت اسحا، والانتقام من العمليات التي قامت بها بزعامة سيدي الحسين أوتمكا، قام السرب الخامس التابع للوحدة المتنقلة لمراكش طيلة شهر أبريل 1924م بعمليات قصف مكثفة أحدثت رعبا حقيقيا، واستهدفت الأسواق وأماكن التجمعات، وخصوصا الاجتماع الذي ترأسه الزعيم الدرقاوي أوتمكا بغرض انتخاب شيخ الحرب.

وقد طلبت قبيلة آيت اسحا من سيدي محا التدخل لدى الفرنسيين لإيقاف القصف العنيف الذي يشنه سلاح الطيران، لكن الزعيم الحنصالي رفض ذلك، مؤكدا أن وساطته مشروطة بالتعبير عن رغبتهم في الخضوع. أما منافسه سيدي الحسين أوتمكا فقد أجل كل مشروع للهجوم على واويزغت إلى ما بعد موسم الحرث بعدما فشل في التوفيق بين آيت إسحا وآيت سخمان[74].

III – الغزو العسكري الفرنسي لمجال آيت سخمان بعد حرب الريف وتراجع نشاط حركات المقاومة الدرقاوية بالمنطقة (1926-1931):

1- احتلال مجال آيت سخمان وتأكيد التفوق العسكري الفرنسي: بعد نجاح المؤسسة العسكرية الفرنسية في القضاء على حركة المقاومة الريفية وإخضاع بقعة تازة، توفرت لديها قوات مهمة مكنتها خلال ربيع سنة 1926م من القيام بعمليات واسعة النطاق بهدف استكمال السيطرة على منطقة واد العبيد[75].

وفي هذا الإطار اقترح الكولونيل دولوستال Deloustal في يوليوز 1926م على الجنرال فريدنبرك فريدنبركقائد جهة مكناس مخططا لعمليات عسكرية محدودة، تهدف إلى احتلال بعض المواقع المهمة مثل بوطاس وأغبالة التي ستمكن القوات الفرنسية من عزل قبائل آيت سخمان عن آيت يحيى، وتأكيد سيطرتها على المنطقة من جهة وإيجاد قاعدة لانطلاق العمليات المستقبلية الرامية إلى إخضاع واد العبيد بكامله من جهة ثانية[76].

وقد توقع الكولونيل دولوستادولوستال مقاومة عنيفة من القبائل المقيمة في هذه المراكز الدينية والاقتصادية بتأطير من الزعامات الدرقاوية التي"تستطيع تعبئة أكثر من 4000 رجل من آيت سخمان"[77]، خصوصا بعد فشل كل محاولات النشاط السياسي لضباط الاستعلامات في استمالة هذه الجماعات المقاومة. ومما زاد من صعوبة هذه العمليات جهل القوات الفرنسية بالمعطيات

الجغرافية والطبوغرافية للمنطقة[78]، الشيء الذي دفعها إلى تبني خطة تقتضي السرية التامة وتتوخى تحقيق المفاجأة[79].

وبتاريخ 31 غشت بدأت القوات الفرنسية تحركها ليلا بشكل مفاجئ عبر غابات شرق ألمسيد، تتقدمها القوات الإضافية التي نجحت في مباغتة المقاومين الذين لم يهتموا سوى بإنقاذ عائلاتهم وأملاكهم[80]. وقد تمكن الكولونيل دولوستالدولوستال خلال هذه العمليات من احتلال أعالي تاكوزالت ومحاصرة بوطاس واحتلال قمة باب بومشون وتطويق كتلة أغبالة التي سقطت يوم 1 شتنبر دون أية مواجهة[81]، بعدما نجح في تكبيد رجال المقاومة خسائر ثقيلة بمساعدة البرطيزة الزيانيين، الذين واصلوا مطاردتهم لرجال المقاومة بعدما أرغموهم على مغادرة أراضيهم وترك حوالي مائتي قتيل[82]. وقد أثرت هذه الخسائر بشكل كبير على معنويات القبائل المقاومة وجعلتها تتردد كثيرا قبل الإقدام على أي عمل عسكري آخر.

تمكنت القوات الفرنسية بعد احتلالها لبوطاس وأغبالة من اختراق المجال الترابي لآيت سخمان[83]، مما اعتبر نجاحا كبيرا وخطوة مهمة لإخضاع كل واد العبيد. ورغم الغليان الكبير الذي أحدثته هذه العمليات داخل الأوساط القبلية والمقاومة الشديدة التي أبداها زعماؤها[84]، فإن وقع هذه الهزائم كان قويا على هذه الجماعات المقاومة التي انكسرت معنوياتها وأدركت عجزها وعدم قدرتها على المواجهة، و لم تجد من حل أمامها سوى الهروب واللجوء إلى المرتفعات المجاورة لجعل عائلاتها وممتلكاتها في مأمن من هجومات القوات الفرنسية وضربات مدفعيتها[85].

ومع بداية سنة 1927م ترسخت لدى القادة العسكريين الميدانيين معرفة عميقة بالمنطقة، ووقع إدراك عميق باحتمالات ردود فعل الجماعات المقاومة، مما مكنهم من مباشرة عملياتهم في المنطقة بأقل الخسائر[86].

لكن وفي الوقت الذي بدأ فيه الكولونيلدولوستال تنفيذ برنامجه العسكري للإخضاع النهائي لواد العبيد، اتخذ قادة جيش الاحتلال قرارا يقضي بإبعاده عن المنطقة وإرساله إلى منطقة وزان، وهكذا تم وقف كل العمليات في المنطقة وبالتالي تأجيل الحسم العسكري مع جبهة واد العبيد[87].

وبعد انتهائها من حرب الريف وإخضاعها لبقعة تازة، وجهت القيادة العسكرية الفرنسية سنة 1928م جميع جهودها لاستكمال إخضاع منطقة واد العبيد، لكن وبالنظر إلى احتكاكها المباشر والمتواصل مع القبائل المقاومة في المنطقة والخسائر التي تكبدتها خلال المواجهات السابقة، قررت تبني استراتيجية ترتكز على إعطاء الأولوية للنشاط السياسي، وبالتالي القيام بـــ**"التهدئة"**[88] بأقل

التكاليف من خلال عمليات بطيئة ومدروسة يقوم بها المقاتلون الزيانيون، وتفادي القيام بعمليات كبيرة واسعة النطاق تتطلب قوات مهمة[89].

وهكذا تمكنت بعد فترة طويلة من الاستعدادات السياسية من القيام بضغط متواصل على الجماعات المقاومة وإرغامها على التراجع إلى تاغزيت غرب أغبالة، حيث تمت إقامة مراكز جديدة في هذه النقط التي تتحكم في أهم الأراضي الفلاحية للقبائل المقاومة[90]. وقد ساعد هذا النشاط السياسي على إنجاح العمليات المقبلة، و"كشف عن النوايا الحقيقية للزعامات الدينية للمنطقة، خصوصا الشريف سيدي محمد بن الطيبي الذي بدا أكثر نشاطا وصلابة رغم الصعوبات والعراقيل التي يصادفها في محولاته لتشكيل حركة لمهاجمة القوات الفرنسية..."[91].

من جهة أخرى كثفت الزعامات الدينية الدرقاوية من دعايتها المعادية تأهبا لتقدم القوات الفرنسية. كما لم تتردد في إنزال أشد العقوبات بالجماعات الخاضعة أو تلك التي دخلت في هدنات مع الفرنسيين[92]باعتبارها تتحمل مسؤولية كبرى في إنجاح الغزو الفرنسي، وهكذا نجح الزعيم الدرقاوي سيدي محمد بن الطيبي في تشكيل تجمع معاد حقيقي شكل تهديدا جديا للقبائل الخاضعة[93].

كما ازدادت حدة النشاط السياسي لمصالح الاستعلامات الفرنسية بعدما نجحت في اختراق العائلة الأمهاوشية التي عرفت عدة عمليات للخضوع، خصوصا بعد وصول الدرقاوي بواسيدي ولد مولاي التقي الذي قدم خصيصا من قصر السوق إلى أغبالة للتأثير على آيت سيدي علي أمهاوش وإقناعهم بالخضوع[94].

وهكذا تمكنت القوات الفرنسية سنة 1928م من تحقيق التقدم على محوري تاغزيت يوم 11 يونيو وغرب أغبالة يوم 17 يونيو بعدما نجحت في احتلال أدربو، بواملال وتيفرت...

وقد سجلت التقارير الشهرية للحماية الفرنسية لسنة 1929م استمرار نشاط جماعات المقاومة بتأطير من الزعيمين الدرقاويين سيدي محمد بن الطيبي وسيدي الحسين أوتمكا وقيامها بالعديد من العمليات[95]، حيث"تم تسجيل أكثر من ثلاثين هجوما على قوات الاحتلال خلال الفترة الممتدة من 19 فبراير إلى 28 مارس 1929، أسفرت عن جرح اثنين من القوات النظامية ومصرع 14 شخصا في صفوف البرطيزة، في حين فقد رجال المقاومة حوالي 30 شخصا"[96]. كما نقض آيت اسحا تعهداتهم السابقة لقوات الاحتلال بشكل مفاجئ، وقاموا بمهاجمة واويزغت وتيمسيكت بإشراف من الزعيم الدرقاوي سيدي الحسين أوتمكا، لكنهم انسحبوا إلى المرتفعات بعد أن تكبدوا

خسائر كبيرة[97]. وفي غشت 1929م تزعم سيدي محمد بن الطيبي آيت سري للدفاع عن أزغار جنوب غرب ألمسيد، وشن "عشرات الهجومات على القوات الفرنسية، وصلت حصيلتها خلال هذا الشهر فقط إلى حوالي 12 قتيلا و8 جرحى في صفوف القوات النظامية و40 قتيلا و14 جريحا من البرطيزة"[98]. غير أن ما ميز هذه الفترة هو تدهور العلاقات بين أتباع سيدي الحسين أوتمكا وأتباع سيدي محمد بن الطيبي، فبعد تخوف هذا الأخير من فقدان نفوذه بفعل التقدم المستمر للقوات الفرنسية أمام أغبالة، طلب مساعدة سيدي الحسين أوتمكا الذي جمع أعدادا هامة من أنصاره بسوق أربعاء آيت أوقبلي وقرر إرسالها يوم 7 شتنبر إلى آيت ويرا للالتحاق بقوات سيدي محمد بن الطيبي[99]. لكن مصالح الاستعلامات الفرنسية وكعادتها أدركت خطورة هذه المبادرة، فتدخلت بواسطة سلاح الطيران الذي شن يوم 4 شتنبر غارات جوية على الحركات المتجمعة في سوق أربعاء آيت أوقبلي مخلفة أكثر من 15 قتيلا من أتباع سيدي الحسين أوتمكا[100]. وبغية تسميم العلاقات بين الزعيمين الدرقاويين، قام رجال من قبيلة آيت محاند التابعة لسيدي محمد بن الطيبي بإيعاز من الاستعلامات الفرنسية بقتل رجلين من عرب أولوح بزاوية نايت سيدي عزيز التابعة لسيدي الحسين أوتمكا[101]. وقد كان هذا الحدث كافيا لتنطلق عمليات الثأر والانتقام بين الجانبين والصراع حول الدية والتعويضات. ورغم محاولات الصلح العديدة التي تمت بين الطرفين، فإنها كانت تفشل دائما بسبب تدخلات مصالح الاستعلامات الفرنسية لتأجيج الصراع والحيلولة دون الوصول إلى اتفاق، أو بسبب الغارات الجوية لسلاح الطيران الذي كان يعمد دائما إلى قصف مقر تجمعات المقاومة لتفكيكها وتشتيتها، أو بسبب شدة التنافس بين الزعيمين الدرقاويين ورغبة كل واحد منهما في مد نفوذه على حساب الآخر[102].

ورغم نجاح هذه الاستراتيجية المتبعة من قبل القيادة العسكرية الفرنسية في المنطقة طيلة سنة 1928م وبداية 1929م، والمرتكزة على العمل الاستخباراتي، من خلال القيام بنشاط سياسي داخل الأوساط القبلية المقاومة يهدف إلى إذكاء روح التفرقة والنزاعات بين الزعامات المقاومة والعمل على إضعاف وتفكيك التحالفات بينها، فإن أدركت أن محاولاتها لاستمالة الأوساط القبلية المقاومة لن تنجح بالاعتماد على النشاط السياسي وحده، لذا ارتأت أن الوقت قد حان لتبني استراتيجية نشيطة ترتكز على نشاط عسكري موجه يعتمد مبدأ الدفاع الهجومي سيقود قواتها عبر مراحل متدرجة إلى الاحتلال التام لهذه المنطقة غير الخاضعة[103].

ومع نهاية سنة 1928م، قدم الجنرال فريدنبرك كقائد منطقة مكناس برنامجا عسكريا يهدف إلى الإخضاع التام لمنطقة واد العبيد، ويشمل تعبئة إمكانات عسكرية هامة[104]. وقد توقع هذا المخطط وقوع خسائر بشرية مرتفعة في صفوف القوات الفرنسية قدرت بأكثر من ألف قتيل[105]، وهو ما رفضته القيادة العليا لجيش الاحتلال التي كانت ملزمة بالتعليمات الحكومية التي تفرض القيام بعمليات عسكرية محدودة وبأقل الخسائر.

وأمام هذه الوضعية، وجدت القيادة الفرنسية بالمغرب نفسها مجبرة على تبني المخطط الذي كان قد اقترحه الكولونيل دولوستدولوستال، والقاضي بتحقيق الربط بين القصيبة وأغبالة، وبالتالي استكمال عزل آيت سخمان وفصلهم عن آيت سري بوسائل عسكرية محدودة وبخسائر قليلة في صفوف القوات النظامية[106]، وذلك عبر ثلاثة مراحل أساسية:

- احتلال مرتفعات قمم أغبالة.
- احتلال أزرار بهدف تغطية تقدم القوات الفرنسية جنوبا.
- احتلال تاوريرت نتيني[107].

وبموجب هذا التصور تمت إعادة تنظيم منطقة تادلة التي أصبحت منطقة مستقلة تحت قيادة الكولونيل دولوستالدولوستال، الذي أسندت إليه مهمة قيادة العمليات شريطة الاقتصار على الإمكانيات والوسائل المتواجدة بالمغرب وعدم طلب قوات إضافية، والعمل على تفادي الخسائر البشرية في صفوف القوات النظامية خصوصا وأنها ـــ أي قوات الاحتلال ـــ ستواجه خصما بتسليح أقل لكنه يتميز بالمرونة والحركية، وهو ما لا يتطلب توفير عتاد عسكري ثقيل.

وقد ارتكزت هذه الخطة التي أبانت عن فعاليتها سنتي 1925م و1926م خلال حرب الريف وفي بقعة تازة على الاقتصاد في الطاقات والإمكانيات، رغم الصعوبات التي يفرضها ميدان العمليات المتسم بالصعوبة والوعورة، بالإضافة إلى سرعة المقاومين وحركيتهم العالية من خلال:

- اعتماد عنصر المفاجأة ومراعاة السرية التامة عن طريق جمع المعلومات التي يوفرها العمل الاستخباراتي والمعرفة الدقيقة بميدان العمليات[108]، والتقدم على طول جبهة واسعة، وبالتالي إرغام الجماعات المقاومة على الانتشار وتوزيع قواتها وتشتيت جهودها بفعل الوجود المباغت لقوات الاحتلال على محاور عدة.
- التنظيم الدفاعي للمراكز العسكرية الذي يتم مباشرة بعد عمليات الاحتلال، حيث يتم بناء الأسوار وحفر الخنادق مما يشكل قاعدة متقدمة لقيادة الهجوم الدفاعي[109].

- أخذ الاحتياطات اللازمة الكفيلة بتفادي الخسائر البشرية في صفوف القوات النظامية، من خلال الاعتماد على حوالي 2500 مقاتل زياني أغلبهم من الخيالة[110].

وقد تمكنت قوات الاحتلال خلال هذه الفترة بعد احتلالها مواكين في الشرق وسكات في الغرب من مباشرة تقدمها عبر أودية أغزيف وعتاب من جهة، وعبر المنحدر الجنوبي لتاسيمي من جهة أخرى، كما تميز شهر يونيو من سنة 1930م بتقدم مهم للقوات الفرنسية غرب الأزغارفال وفي أعالي درنة، حيث نجحت بفضل هذا التقدم التدريجي من تحقيق الربط بين القصيبة وأغبالة عبر تيزي نسردون وتاوريرت نتيني دون اصطدامات تذكر[111]. وكان الزعيم الدرقاوي سيدي محمد بن الطيبي قد حاول خلال شهر ماي 1930م تعبئة الجماعات المقاومة في القبائل غير الخاضعة من آيت أومالو وآيت سخمان وآيت ويرا وآيت محاند بهدف عرقلة كل تقدم للقوات الفرنسية على جبهة القصيبة—أغبالة. ورغم أن بعض التجمعات قد تمت فعلا، فإن هذه الحركات بدت في مجملها أقل تنظيما واستعدادا للقيام بعمل عسكري جدي[112]، فمثلا استهدف هجوم مضاد ليلي عنيف يوم 20 يونيو موقع تامراشت شنه 300 مقاوم من آيت محاند، لكنه مني بالفشل واندحر المقاومون بعد أن خلفوا وراءهم حوالي 15 قتيلا وعددا كبيرا من الجرحى[113]. لكن رغم هذا التفوق العسكري لقوات الاحتلال، فقد استمرت مختلف قبائل اتحادية آيت سخمان في مقاومتها "ولم تتخل عن موقفها العدائي، مما جعل القوات الفرنسية تقتنع بأن تكثيف الضربات الجوية لسلاح الطيران هو السبيل الوحيد لتدعيم وضعيتها والوصول إلى حل نهائي لهذا المشكل"[114].

من جهة أخرى أتاحت العمليات التي تم تنفيذها مع بداية سنة 1931م إمكانية إجبار آيت سري وآيت سعيد أوعلي وآيت داوود أوعلي على الاختيار بين الخضوع أو إخلاء أراضيها واللجوء إلى المرتفعات المجاورة[115]. وقد سجلت المصادر العسكرية الفرنسية استمرار الدعاية التي تقوم بها الزعامات الدينية الدرقاوية وخصوصا سيدي محمد بن الطيبي وسيدي المكي في محاولة منهما لعرقلة تقدم قوات الاحتلال، لكن مقاومتهم ظلت غير منظمة وتميزت بغياب الوحدة والتنسيق[116].

وقد كان لنجاح هذه العمليات الفرنسية صدى إيجابيا من الناحية السياسية، إذ مكن القيادة الفرنسية من مباشرة نشاطها السياسي داخل قبيلة آيت ويرا وربط الاتصال بالعديد من الفخذات غير الخاضعة[117]. أما من الناحية العسكرية فقد مكن هذا التقدم المحقق من التحكم في المرتفعات

الشرقية لقبيلة آيت ويرا، وبالتالي تدعيم النظام الدفاعي لقواتها في أعالي واد العبيد، وجعله قاعدة متميزة لانطلاق العمليات المستقبلية.[118]

2- تراجع نشاط حركات المقاومة بالمنطقة:

أ- تراجع نفوذ الزعيم الدرقاوي سيدي محمد بن الطيبي: استمر النشاط الجهادي لسيدي محمد بن الطيبي إلى حدود بداية سنة 1930م لدى إيشقرن وآيت ويرا وآيت أومالو[119]، ولم يتأثر نفوذه رغم تعرضه لعدة هزائم. كما قام هذا الزعيم الدرقاوي بمجهودات كبيرة لتعبئة مختلف قبائل المنطقة لنجدة المراكز الدينية الدرقاوية التي كانت هدفا للعمليات العسكرية الفرنسية، حيث استجابت له العديد من القبائل.

وقد كان للفشل الذي منيت به حركات المقاومة التي أشرف عليها هذا الزعيم الدرقاوي لمرات عديدة، تأثير سلبي على مستقبله الديني والسياسي، خاصة بعد التقدم العسكري لقوات الغزو بين القصيبة وأغبالة، حيث غادر المنطقة ولجأ جنوب واد العبيد[120].

ومما زاد من عزلة سيدي محمد بن الطيبي وتراجع تأثيره، دخوله بدوره في نزاعات عديدة ضد بعض الزعامات المقاومة خاصة الزعيم سيدي الحسين أوتمكا، حيث قامت جماعة من آيت محاند في شتنبر 1928 بتحريض من سيدي محمد بن الطيبي بالهجوم على آيت عبد اللولي الموالين لسيدي الحسين أوتمكا، وهو الهجوم الذي أسفر عن مقتل 24 شخص وخطف عدد من الأطفال والنساء ونهب القطعان، مما أدى إلى اندلاع المناوشات بين الجانبين[121].

أحس سيدي محمد بن الطيبي بخيبة أمل كبيرة وهو يرى أنصاره ينقسمون إلى فريقين متعارضين، فريق بزعامته مصمم على التصدي لكل تقدم عسكري فرنسي مقبل، والثاني يتزعمه بناصر ولد موحا اوسعيد، مستعد لإعلان خضوعه بمجرد وصول القوات الفرنسية إلى تاوريرت نتيني[122].

وقد كانت الاستخبارات الفرنسية تتابع عن كثب مختلف هذه التطورات، حيث شكل بناصر محور نشاطها السياسي، من خلال لجوئها إلى تقوية نفوذه عبر قصفها المكثف والمتواصل للأسواق والتجمعات التي يرتادها خصمه سيدي محمد بن الطيبي والقبائل التابعة له[123]، مما أحدث اضطرابا في الحياة الاقتصادية لهذه القبائل، الشيء الذي انعكس سلبا على نفوذ وتأثير هذا الأخير، لأن ارتياد الأسواق يعد حاجة ضرورية بالنسبة لهذه الأوساط القبلية[124].

وقد أتاحت هذه الخطة التي لجأت إليها قوات الاحتلال الفرنسي إمكانية ترسيخ نفوذ بناصر الذي انضمت إليه العديد من الفخذات التي كانت ترغب في الخضوع في المستقبل القريب، لكن الأوساط الاستخباراتية الفرنسية كانت تدرك أن وضعية بناصر تبقى مع ذلك غير مضمونة وقابلة لأن تتحول إلى خسارة كبيرة إذا توقف الضغط على خصمه سيدي محمد بن الطيبي، أو إذا وقع تقارب بين هذا الأخير وسيدي الحسين أوتمكا[125].

وقد كانت لوفاة الزعيم الدرقاوي سيدي محمد بن الطيبي يوم 26 يونيو 1932 [126] انعكاسات سلبية كبيرة على الجماعات القبلية المقاومة التي تدنت معنوياتها ودخلت في فوضى عارمة تلاشت معها كل إمكانية الوحدة والتنسيق بينها، فأصبح نشاطها فرديا ومحدودا[127]، غير أن هذا التراجع الذي شهدته حركة المقاومة في المنطقة بعد رحيل هذه الزعامات الدينية الدرقاوية وإن كان قد سهل مـــأمورية القوات الفرنسية، فإنه في المقابل صعب من مهمة استخباراتها التي لم تجد أية زعامات يرتكز عليها نشاطها السياسي في الجماعات القبلية التي رفضت الخضوع[128].

ب□ وفاة الزعيم الدرقاوي سيدي الحسين أوتمكا وبداية هزيمة المقاومة السخمانية: يعد سيدي الحسين أوتمكا زعيم الجناح الدرقاوي للزاوية الحنصالية بأسكر جنوب واد العبيد، وأحد أبرز الزعامات المقاومة التي ملأت الفراغ الروحي والسياسي الذي أحدثه رحيل الزعيم الدرقاوي سيدي علي أمهاوش. امتد تأثيره ليشمل جل قبائل اتحادية آيت سخمان خاصة آيت داوود أوعلي وآيت سعيد وآيت عبدي[129]، وبذلك استحق لقب الخلف الديني والسياسي لسيدي علي أمهاوش، في وقت اشتد فيه التنافس والصراع حول أحقية هذا الإرث الروحي بين أبناء سيدي علي وورثته[130].

خاض سيدي الحسين أوتمكا نشاطا دعائيا مكثفا داخل قبائل اتحادية آيت سخمان وخارجها بهدف تعبئتها دينيا وسياسيا وتنظيمها عسكريا. واستطاع الاحتفاظ بمستوى من التعبئة، وبحد أدنى من الوحدة بينها لإطالة أمد المواجهة ضد قوات الاحتلال الفرنسي، رغم العراقيل الكبيرة التي كانت تحد من نشاطه وتحركاته. كما قاد مقاومة عنيفة في جبهة سكات سنة 1924م بمشاركة حوالي 2000 رجل من آيت سخمان وآيت عبدي وآيت إسحا وآيت سعيد[131]

ورغم أن النشاط السياسي والعسكري الذي باشره هذا الزعيم الدرقاوي لم يحل دون اختراق القوات الفرنسية لتراب الاتحادية، فإنه عرقل عملياتهم وأطال مدة غزوهم وكبدهم خسائر مهمة اضطر معها قادة جيش الاحتلال إلى تبني خطط الحصار والتطويق وتكثيف النشاط السياسي،

عوض القيام بعمليات واسعة النطاق، مما جعلهم لم يحققوا سوى مكاسب محدودة طيلة سنوات رغم تفوقهم العسكري واللوجستيكي.

وقد نجح سيدي الحسين أوتمكا بفضل التزامه الثابت بمعاداة المخططات الاستعمارية وقوة تأثيره في مد نفوذه ليشمل العديد من الفخدات التي كانت تدين بالولاء لعبد المالك بن الطيبي، وخصوصا من آيت محاند وآيت عبد اللولي[132]، الشيء الذي اعتبره هذا الأخير تهديدا حقيقيا لنفوذه داخل هاتين القبيلتين. وقد نجم عن هذه المواقف السلبية التي تبناها الزعيم الدرقاوي عبد المالك بن الطيبي انتشار حالة من التوتر بين قبائل واد العبيد التي انشغل زعماؤها بالنزاعات والمنافسات حول المصالح الشخصية ومناطق النفوذ عوض التكتل لصد التهديد الاستعماري[133].

كما كرس الزعيم الدرقاوي أوتمكا جزءا هاما من وقته وطاقته في محاولات للحد من النزاعات والصراعات التي كانت تفتك بالجبهة الداخلية لكتلة المقاومة. وعقد لهذا الغرض عددا كبيرا من الاجتماعات لإقناع الجماعات المقاومة بتوحيد صفوفها وتوجيه بنادقها ضد قوات الاحتلال والقبائل الخاضعة دون غيرها[134].

وإذا كانت مجهودات سيدي الحسين أوتمكا لتوحيد جهود هذه الجماعات المقاومة وتشكيل جبهة مقاومة موحدة قد أعطت أكلها في كثير من الأحيان، ونجحت ولو مؤقتا في وقف حالة الفوضى التي عمت مختلف الأوساط القبلية، فإنها عجزت في أحيان أخرى عن وضع حد لنزيف الانقسامات الداخلية واصطدمت بالتنافس الشديد بين مختلف الزعامات الدرقاوية الذي تحول في كثير من الأوقات إلى نزاعات داخلية من جهة، وبالتدخل المستمر لمصالح الاستعلامات الفرنسية لتخريب الجبهة الداخلية للمقاومة القبلية من جهة أخرى، بالإضافة إلى انضمام زعامات فاعلة في المنطقة إلى المعسكر الفرنسي مثل الزعيم سيدي محا وبعض أبناء سيدي علي أمهاوش.

هكذا إذن خاض الحسين أوتمكا صراعا على جبهات متعددة ضد قوات الاحتلال الفرنسي، وضد منافسيه أولاد الطيبي بسبب طموحاتهم الشخصية وتخوفهم من فقدانهم لنفوذهم على حساب تفوقه ونجاحه. كما كان أوتمكا مضطرا لخوض صراع ضد خصمه وابن عمه الزعيم الديني محا الحنصالي المدعوم من قبل الفرنسيين[135]، وهو الصراع الذي أدى إلى انقسام الأوساط القبلية إلى فريقين متعارضين، فريق يتبنى المقاومة وفريق يفضل الخضوع[136].

وقد تزامنت وفاة أوتمكا يوم 13 ماي 1930[137]مع دخول حركات المقاومة بالمنطقة في مرحلة من التراجع نتجت أساسا بفعل اشتداد الحصار العسكري على الجماعات المقاومة المتحصنة في

المرتفعات، ولجوء القوات الفرنسية إلى تكثيف عمليات القصف الجوي والمدفعي، واضطرار العديد من عشائر الاتحادية إلى طلب الهدنة والتفكير في الخضوع. كما جاءت هذه الوفاة في مرحلة تميزت باحتدام التناقضات الداخلية بين مكونات الاتحادية والتنافس والصراع بين مختلف الزعامات الدينية.

خاتمة: عملت هذه الزعامات الدرقاوية الصوفية منها والقبلية على استغلال الطابع الروحاني لذهنية المجتمعات القبلية المغربية، وإيمانها بالفعل التوسلي وطلب العون الإلهي. واستفادت من المكانة المتميزة التي كانت تتمتع بها بهدف إقناعها بعدالة قضيتها وحثها على التشبث بالمقاومة رغم تواضع إمكانياتها. كما نجحت إلى حد كبير في تجاوز الخلافات والصراعات القبلية التي كانت سببا في مواجهات دموية عانت منها مختلف القبائل المغربية. واستطاعت تعويض النقص المادي الذي كانت تعانيه عن طريق الاستغلال الذكي للتضاريس الصعبة للمناطق الجبلية التي كانت تنشط فيها. ورغم أنها لم تتمكن من إحداث تغيير كبير وحاسم في ساحة العمليات، فإنها نجحت في إلحاق خسائر مهمة بالقوات الفرنسية بالاعتماد على إمكانياتها الذاتية وفي غياب التسليح الجيد والتنظيم المحكم، واستطاعت أن تفشل خططها وتعرقل مخططاتها العسكرية والسياسية، وأخرت مشروعها الاستعماري.

الهوامش:

* - Peyronnet R, Tadla, Pays Zaian, moyen Atlas, Alger,1923, p.224.

2 بوزويتة سمير، الاحتلال العسكري الفرنسي للمغرب دراسة في الاستراتيجية العسكرية 1912-1934، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين واعضاء جيش التحرير، الرباط، 2007، ص51.

3 - Guillaume A, les Berbères marocains et la pacification de l'Atlas central (1912-1933), Rene Julliard, Paris, 1946, p.208.

4- Tarrit Commandant, Etude Sur le Front Chleuh: Le Pays des Ait Seri et des Ait Chokhman, B.S.G.M, 2er et 3er Trimestre, T III, 1923 , p.528.

5 - Bernard M Lieutenant-colonel, Les Etapes de la Pacification Marocaine, la Pacification de Maroc 1907-1934, Publications Du Comité De L'Afrique Française, Paris, 1936, p.31.

6 بوزويتة سمير، مرجع سابق، ص.56.

7- Tarrit Commandant, op,cit, p.528.--- 8 -R.M.E.P, Février 1919, p.12.--- 9 - Guillaume A, op. cit, p.208.

10 للاطلاع على خطط وتكتيكات القوات العسكرية الفرنسية بالمغرب يمكن الرجوع إلى: بوزويتة سمير، مرجع سابق، ص69.

11 - De Lacroix Général, La Situation Militaire Du Maroc, B.C.A.F, №3, Mars 1922, p.156.

12-Caid Mia, Avec le Groupe Mobile en opération dans le moyen Atlas, B.C.A.F, №11, novembre 1922, p.486-487.---- -De Lacroix Général, La Situation Militaire Du Maroc, op. cit, p.156.

13-Bernard M Lieutenant-colonel, op.cit, p.31.

14- مباشرة بعد انضمامه إلى الفرنسيين، قام بوعزة بشن هجومات عنيفة على القبائل المقاومة وهبها بوحشية، كي يعبر لقادة جيش الاحتلال عن نواياه الحسنة. كما أن هذا التصرف يدخل أيضا في إطار سعي الجانب الفرنسي إلى استغلال الصراعات القديمة التي كانت بين قبائل المنطقة، والعمل على إحيائها من خلال إشاعة روح الانتقام، انظر: R.M.P, Janvier 1918, p.3.

15 - La Pacification du Maroc Français, R.C, №9, septembre 1922, p.245.

16- Caid Mia, Avec le Groupe Mobile en opération dans le moyen Atlas, op.cit,p.486.

17- De Lacroix Général, La Situation Militaire Du Maroc, op.cit, p.156.

18-Les Progrès de la Pacification Du Maroc En 1920, B.C.A.F, №7 et 8, 1920. p.240.---- 19-Ibidem.

20-Ibid, pp.240-241.--- 21- Peyronnet, p.224/R.M.E.P, Mai 1920, p1.

22- Peyronnet R , op. cit, p.225.---- 23- Guillaume A, op. cit, p.206.---- 24 -R.M.E.P, Mai 1920, p.1.

25- أشارت التقارير الشهرية للحماية الفرنسية إلى أن نجاح هذه العمليات العسكرية قد دفع بالقبائل المقاومة مثل آيت سخمان، آيت عطا نومالو وآيت إسحا... إلى التخلي عن أي عمل هجومي ضد القوات والمراكز العسكرية الفرنسية. لكن وبالرجوع إلى التقاليد الحربية لهذه الجماعات القبلية يتضح أنها فضلت عدم مواجهة القوات العسكرية الفرنسية وقررت اللجوء إلى المرتفعات المجاورة، انظر: R.M.E.P, Juin 1920, p.10

26 - Ibid, p.3.---- 27 - Voinot Louis, op.cit, p.357.
28- Les Operations Militaires au Maroc En 1922, R.C, №12, décembre 1922, p.340.
29 - Les opérations de 1922 dans la région d Ouaouizerth, R.C, N°1, janvier 1923, p.5.
30- Théveney G, Souvenirs de L'épopée Marocaine, B.S.G.A.A, 1er trimestre, №133, 1933, p.2.
31 - Peyronnet R , op. cit, p.224/Guillaume A, op. cit, p.206.---- 32 -Ibidem/Ibid, p.208.
33 - Peyronnet, op.cit, p.227.---- 34- Voinot Louis, op.cit, p357.---- 35- Peyronnet, op.cit, p.229.
36 - Guillaume A, op. cit, p.208.---- 37- Voinot Louis, op.cit, p.358.---- 38-Ibidem.
39 -Tarrit Commandant, op,cit, p.537-538.---- 40 - Les Operations Militaires au Maroc En 1922, op.cit, p.342.
41 - Guillaume A, op. cit, p.222.---- 42 - Ibidem.

43- تعتبر هذه النبوءات أن المسلمين لم يتبعوا الرسول جيدا، لذلك عاقبهم الله بالغزو المسيحي، لكن الله أشار إلى حدود لن يستطيعوا تجاوزها، وذكرها لسيدي بوبكر أمهاوش الذي خطها بنفسه وهي عبارة عن أحجار متراصة(كركور) سوف تسقط فيها كل أسلحة الكفار والخونة وبذلك ستحين ساعة العفو والنصر، انظر: Guillaume A, les Berbères marocains…,op. cit, p.219.

44 - La Pacification du Maroc Français, op.cit, p.245.
45 - Caid Mia, Avec le Groupe Mobile en opération dans le moyen Atlas, op.cit, p.486.
46- Les Operations Militaires au Maroc En 1922, op.cit, p.342.---- 47- Ibidem.---- 48- Ibidem.
49- Peyronnet, op.cit, p.231.---- 50 - Les opérations de 1922 dans la région d Ouaouizerth, op.cit, p.5.
51 - Les Operations Militaires au Maroc En 1922, op.cit, p.342.--- 52 -R.M.E.P, septembre 1922, p.10/R.C, Mars 1923, p.157.---- 53- Peyronnet, op.cit, p.231.---- 54- R.C, Mars 1923, p.157.

-يتم انتخاب الأمغار أو زعيم الحرب المشترك بصفة مؤقتة من طرف الجماعات القبلية بهدف القيام بعمل عسكري مشترك خلال فترة زمنية معينة، وتعتبر عملية الانتخاب تجسيدا لرغبة هذه القبائل في التنسيق والوحدة. ويعتبر الأمغار الشخصية الوحيدة المخولة بالتفاوض مع باقي القوى القبلية المجاورة، كما يسهر على اتخاذ كافة الإجراءات لضمان قوة القبائل المتحدة وجعلها على استعداد كامل ومستمر للحرب من خلال القيام بعمليات شراء الخيول والأسلحة والذخائر وتنظيم دفاعات القبيلة وتحديد مساهمة كل فخذة أو مجموعة قبلية في كل عمل عسكري، كما تتجلى المهمة الأساسية للأمغار في قيادة هذه القبائل في المعارك، انظر:

- Guennoun S, Choses du Moyen Atlas, Pacification du Pays Aït Oumalou, Publication du Comité de l'Afrique française, TVIII, Paris 1929, p.33-35.

55 - Ibidem.
56 - Les Operations Militaires au Maroc En 1922, op.cit, p.342.
57- Ibidem.
- R.C, Mars 1923, p.159.
58- Catherine Henri, Ouaouizert, R.F.M, 7eme Année, №70, 1922, p.250.
59- Peyronnet, op.cit, p.232.
60-Ibid, p233.
61- R.M.E.P, Juin 1920, p.3.
62- Les Opérations de 1923 Dans La Région de Marrakech, B.C.A.F, №8, Juillet 1923. p.405.
63-Ibidem.
64- Ibidem.
65- Ibid, p.406.
66 - Ibidem.
67 - Opérations du printemps dans La région de Marrakech, R.F.M, 7eme Année, №79, Juin 1923, p.117.
68 -Ibidem.
69- Les Opérations de 1923 Dans La Région de Marrakech, op.cit, p.412.
70 - Ladreit de Lacharrière J, La Pacification de L'oued El Abid, B.C.A.F, №7, Juillet 1931, p.454.
71 -R.M.E.P, Mai1924, p.3
-Ibid, p.8.
72- R.M.E.P,Avril19 24, p.3.
73- Ibidem
74- R.M.E.P, October1924, p.4.
75- Guillaume A, op. cit, p.236.
76 - Ibidem.
- Voinot Louis, op.cit, p. 360.
- Saulay J, Histoire des Goums Marocains, Tome I, La Koumia, Paris, p.215.

77- Guillaume A, op. cit, p.237.
78- Saulay J, op.cit, p.215.
79 – اعتمدت القيادة الفرنسية على القوات العسكرية التالية: كتيبتان ونصف، 10 سريات، بطاريتان، فرقتان من الكوم والبرطيزة الزيانيون، انظر:
- Ibidem.
80 - Guillaume A, op. cit, p.238.
81- Ibidem.
82 - Ladreit de Lacharriére J, op.cit, p.454.
83 - Voinot Louis, op.cit, p .360.
84 - R.M.E.P, December 1926, p.4.
85 - Guillaume A, op. cit, p.241.
86- Ibid, p.244.
87 - Ibidem.
88 - حول مفهوم التهدئة وظروف تبنيها يمكن الرجوع إلى:
-بوزويتة سمير، مرجع سابق، ص.50.
89- Ladreit de Lacharriére J, op.cit, p.454. 89
90 - R.M.E.P, Juin1928, p.1.
91 - Ibid, p.2.
92- R.M.E.P, Mars-Avril 1928, p.3.
93 - Ibidem.
94 - Ibidem.
95- R.M.P, Octobre 1929, p.1.
- R.M.P, Novembre 1929, p.1.
- L'Armée d'Afrique, №54, 6Année, Avril 1929, p.134.
96 - Ibidem.
97 - Ladreit de Lacharriére J, op.cit, p.456.
98 - L'Armée d'Afrique, №57, 6Année, Juillet- Aout 1929, p.242.
99 - R.M.E.P, septembre 1929, p.1.
100 - Ibidem.
101 - Ibid, p.2.
102 - Ibidem.
103 - Ladreit de Lacharrière J, op.cit, p.456.
104 – تتمثل في : 17 كتيبة و15 بطارية و7000 من البرطيزة، انظر: .Guillaume A, op. cit, p.254 -
105- Ibidem.---- 106- Ibidem.---- 107- Ladreit de Lacharrière J, op.cit, p.457/Guillaume A, op. cit, p.256.
108- Théveney G, op.cit, p.5.---- 109- Ladreit de Lacharrière J, op.cit, p.456.---- 110 - Ibid, p.457.
111 - R.M.E.P, Mai-Juin, 1930, p.3.----112- Ibidem.---- 113 - Ibidem.----
114 - Ladreit de Lacharrière J, op.cit, p.461.---- 115 - Guillaume A, op. cit, p.289.
116 - R.M.E ;P, Juin-juillet, 1931, p.3.----117 - R.M.E.P, Mai-Juin, 1930, p.1.----118 - R.M.E.P, Juillet-Aout, 1930, p.1.----119 - Ladreit de Lacharrière J, op.cit, p.453.
120 - R.M.E.P,Novembre 1929, p.4/Drouin Jeannine, op.cit, P.138.----121 - R.M.E.P, Novembre 1929, p.1.
122- R.M.E.P, Janvier1930, p.1/R.M.E.P, Février 1930, p.2.----123- R.M.E.P, Mars1930, p.1.
124- Ibid, p.2.----125 - Ibid, p.1.----126- R.M.E.P, Juin1930, p.2.----127- Ibidem.----128- Ibidem.
129-Tarrit Commandant, op.cit, p.550.----130 - Drouin Jeannine, op.cit, p.136.----131- R.M.E.P, septembre 1924, p.5.----132- R.M.E.P, octobre 1925, p.8.----133 - R.M.E.P, juillet 1926, p.5.
134- R.M.E.P, Mai-Juin 1925, p.10.---- 135 -R.M.E.P, Juin 1926, p6.
– استمرت الخدمات التي يقدمها سيدي محا لصالح قوات الاحتلال حتى بعد خضوعه، حيث عمل جاهدا من أجل تفكيك تجمعات المقاومين وإقناعهم بالخضوع أو على الأقل مهادنة القوات الفرنسية مهددا إياهم بالقصف الجوي، انظر: R.M.E.P, Novembre 1929, p.4.
136- R.M.E.P, Mai 1926, p.8.---- 137- R.M.E.P, Mai-Juin, 1930, p.3.

ABSTRACT: *In this article, we are going to shed light on the different attitudes that the heads of the Derkawis of Ait Chokhman have adopted towards the French military invasion, in the same way we will try to answer the questions that are still unclear. at the same time, as we are going to proofread a group of events and facts related to the Moroccan resistance movement which had a Derkawi sophist frame that has often been forgotten, despite the fact that it is considered more important than the other famous resistance in which the searchers have been much more interested .*

The chefs Derkawis have done huge efforts to bring together the different tribes of Ait Chokhman which have been a clear target of French military operations, so a lot of tribe groups joined them in their fight against the French colonization.